

والأمر الذي نستطيع أن نخرج به من كل هذه المناقشة هو اجماع الآراء على أن اللغة قديمة قدم الانسان نفسه و قدم الحضارة او الثقافة الإنسانية بمعناها الواسع^١.

^١ يحاول بعض العلماء أن يستدل على قدم اللغة طريق مقارنة تجربة الجنس البشري في اللغة عموما بتجربة الطفل لتعلم اللغة السائدة في المجتمع على أساس ان التجريبتين من طبيعة واحدة كما ان لها طابعا اجتماعيا في الحل الأول وليس طابعا ميتافيزيقيا، فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال بالآخرين وهي وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفي على أي حال للتعبير كما هو الحال في البكاء للتعبير عن الجوع والألم أو عدم الشعور بالراحة والخوف. وهذه وسائل تسود كل المجتمعات الإنسانية بلا استثناء وبغير اختلاف في كل مكان والزمان، وان كانت تتخذ عند الكبار اشكال جديدة ومقصودة، ولا يلبث ان يلجا الطفل الى بعض الأصوات ذات المقاطع المتميزة للتعبير عن بعض حاجاته الأخرى البسيطة وهكذا تدريجيا حتى يمتلك ناصية اللغة، وهذا هو ما فعله الانسان البدائي حين نقل هذه التجربة الاجتماعية الأولية الى الطبيعة باسرها لأن العلاقة بين الطبيعة والمجتمع في نظره علاقة قوية جدا وتؤلف كلا واحدا متماسكا لا يمكن الفصل فيه بينهما. وليست الطبيعة ذاتها الا مجتمع كبيرا هو مجتمع الحياة ذاتها. وقد حاول الانسان ان يخضع هذا المجتمع الكبير لعالمه الخاص، ولجأ في ذلك الى السحر، واتخذ الكلمة بذلك في نظره قوة اجتماعية وقوة فائقة للطبيعة معا بحيث يستطيع عن طريقها ان يخاطب كل ما في الكون من قوى مرئية وغير مرئية، اذ ليست الطبيعة في نظره شيئا جامدا لا يسمع ولا يعي ولا يتكلم، وانما هي شيء يفهم ويدرك، وعل ذلك فاذا خوطبت بالطريقة الملائمة فسوق تستجيب ولا ترفض النداء، وبذلك فليس هناك ما لا يستجيب او بخضع للسحر، ولكن لم يلبث الانسان ان وجد ان الكلمة السحرية قاصرة على تحقيق أهدافه، وان الطبيعة لا تفهم لغته دائما وبذلك فهي لا تستجيب دائما للنداء، وبذلك لم تعد للغة كل هذه القوة الهائلة التي كانت لها في نظره، ولم يعد لها كل ذلك التأثير الفيزيقي المباشر او الفائق للطبيعة. فهي لا تستطيع ان تغير طبائع الاشياء او تجير الالهة او الشياطين، ومع ذلك انها لم تفقد كل معناها، ولم تعد مجرد أصوات من دون معنى، وكل ما حدث هو ان الخاصية الأساسية فيها لم تعد الخاصية الفيزيقية بل الخاصية المنطقية، وهذا تغير لا يستهان به، وكما يقول ارنست كاسيرر في ذلك، لقد أصبحت الكلمة(اللوجوس)هي مبدأ الكون وأول مبدأ في المعرفة الإنسانية(انظر كتابه مقال عن الانسان، المرجع السابق ذكره، بالإنجليزية صفحات ١٤٣-١٤٥).

وليس من شك في ان اي محاولة لفهم أصل اللغة لن تجدي شيئاً الا إذا افلحت في اكتشاف الطريقة التي تمكن الانسان بها من أن يقيم عادات تعسفية معينة ومتفق عليها للربط بين اصوات الكلام والتجربة، وهو الأمر الذي أخفقت في تحقيقه كل النظريات التي ذكرناها. ومن هنا يعتقد علماء الأنثروبولوجيا اللغوية بالذات أن الأجدى في البحث عن أصل اللغة ان يركز الباحث جهوده على تحليل اللغات الحديثة واللغات البدائية الموجودة الآن بالفعل تحليلاً دقيقاً، لأن مثل هذا التحليل خليق بان يبين له أن عناصر الكلام مثل (الألفاظ والعبارات والجمل) هي مجرد رموز تعسفية وليست في ذاتها جزءاً من الواقع أو التجربة التي يرمز الصوت اليها، وهذه الرمزية التعسفية التي تتميز بها الألفاظ تشير الى الخاصية الاجتماعية للغة، فاللغات تربط دائماً بجماعات من الناس وليس بفرد واحد معين بالذات ، كما أن الفرد يكتسبها من الجماعة التي تعيش فيها الا العكس، بالإضافة الى انها تستخدم في المحل الأول وسيلة للاتصال والتعاون، اذ عن طريقها يستطيع الفرد توصيل تجربته الشخصية للآخرين ونقلها اليهم، كما يشاركونهم تجاربهم على ما ذكرنا². ومهما يكن من شيء فانه على الرغم من كل ما أحرزه الانسان الان من تقدم، وبالرغم من كل ما لدينا من اجهزة وعلم ومعرفة. فلا تزال مشكلة اصل اللغة مستغلقة على الافهام، فالإنسان الأول لم يترك وراءه أية تسجيلات من كلامه مثلما فعل بالنسبة لكتابته او نقوشه او رسومه التصويرية، ومن السهل التعرف على اصل الكتابة بدرجة عالية من الدقة، والدراسة العلمية الحقة لأصل اللغة تبدأ ببداية اللغة المكتوبة المسجلة اي انها تكون بالضرورة دراسة او بحث عن اصل الكتابة وليس أصل اللغة في عمومها³.

² Hojer, In Shapiro, op. cit., p. 20

³ Pie.op. cit p 20